

مفارقة العلوم الإنسانية: بين اكتشاف الإنسان ونهايته من منظور ميشال فوكو

The paradox of the human sciences: the discovery of man and his end according to Michel Foucault's thought.

د. نادية سعدي *

جامعة الجزائر 2، nadia.saadi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/31؛ تاريخ القبول: 2025/11/07؛ تاريخ النشر: 2025/12/30

ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال إلى الوقوف عند قراءة ميشال فوكو لواقع العلوم الإنسانية، وهذا بعد إبراز موقفه من النظام المعرفي وكيفية نشأته عبر الحقب التاريخية وعلاقته بالسلطة والخطاب، ما يمهّد لطرح المفارقة التي تنطوي عليها هذه العلوم، والتي تمثل إشكالية هذا البحث والتي تتمحور حول ظهور الإنسان كموضوع للمعرفة والتنبؤ بموته في نفس الوقت.

ولقد أظهرت نتائج هذه الدراسة أن لب المفارقة يكمن في كون العلوم الإنسانية عملت على تغييب الإنسان الذي يمثل موضوعها، ذلك لأنها لم تدرس ماهيته وطبيعته بطريقة موضوعية. فكل ما نجده هو خطاب حول الإنسان مشبع بالسلطة وخاضع لآلياتها. ما جعل فوكو يشكك في مسألة اعتبار الإنسان أساس بناء المعرفة وتأسيس العلوم الإنسانية. لقد اتخذ فوكو موقفا نقديا منها ولم يعتبرها مجالا معرفيا محايدا، فهو مرتبط بالبنى السلطوية وبإجراءات الرقابة والانضباط، بذلك فهي لم تتمكن من فهم الإنسان كحقيقة ثابتة. ومن هذا المنطلق يعلن عن موت الإنسان في أحضان العلوم التي تدعي دراسته. كلمات مفتاحية: الإنسان؛ العلوم الإنسانية؛ المعرفة؛ السلطة؛ الخطاب.

Abstract:

The present article explores the reality of human sciences according to the reading of Michel Foucault who highlighted his view on the

epistemological system and how it evolved through time, stating its relation with power and discourse. This introduces the presentation of the paradox that these sciences involve and which is the problematic of this study related to the emergence of man as a subject of knowledge on one hand and the prevision of his death at the same time.

The findings stated that this paradox is due to the fact that human sciences ignored the human being who represents their subject as they have not studied his core and nature objectively. A discourse about man overwhelmed with power and subject to its mechanisms is all we can find. For this reason, Foucault doubted about considering man the basis for building knowledge and establishing human sciences. He criticized these sciences and didn't consider them an objective sphere of thought, but one linked to power and techniques of regulation and discipline. In so doing, they didn't succeed to understand man as a fixed reality. Therefore, he announces the death of man within the grasp of sciences which assert to study him.

Keywords: Man; human sciences; knowledge; power; discourse.

مقدمة:

تسعى العلوم الإنسانية إلى دراسة الإنسان في مختلف أبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية، وهي تعد مجالاً خصباً للتساؤل الفلسفي حول شروط إمكانها وحدود صلاحيتها. وفي هذا السياق يبرز المفكر الفرنسي ميشال فوكو (1926-1984م) كأحد أبرز المفكرين الذين أعادوا مسألة الأسس التي قامت عليها العلوم الإنسانية ضمن إطار فلسفته عن الخطاب والسلطة والمعرفة. ومن هنا فإن مقاربة فوكو تكشف الطابع الإشكالي لهذه العلوم.

يطرح فوكو مسألة العلوم الإنسانية في مؤلفه "الكلمات والأشياء" أين يوضح الشروط التاريخية والايستمولوجية التي أدت إلى ظهورها، ويكشف عن شبكتها المعرفية المعقدة وايستميتها. ويشير إلى أن هذا الظهور يحمل مفارقة أساسية في نظره. ومن هنا يتأسس مشروعه النقدي الذي لا يهدف إلى بناء نظرية للعلوم الإنسانية بقدر ما يسعى إلى تعرية أصولها التاريخية والكشف عن طبيعة علاقتها بأنماط السلطة والمعرفة. فباعتبار أن الإنسان يشكل موضوعاً للمعرفة في العلوم الإنسانية، فإنه يفترض أن نجد خطاباً

موضوعيا عنه، ومستقلا عن شبكات السلطة والمعرفة التي تحد إمكاناتها وتضع لها حدودا وتحدد نمط تفكيرها. وبناء على ذلك تتأسس إشكالية هذا المقال: هل تمكنت العلوم الإنسانية من تأسيس خطاب علمي موضوعي مستقل عن الإنسان؟ ما هي مبررات فوكو في إعلانه عن موت الإنسان؟

(1) سلطة الخطاب وآليات إنتاج المعرفة

لا يمكن فهم وجهة نظر فوكو بخصوص العلوم الإنسانية وموقع الإنسان فيها إلا بالرجوع إلى فلسفته التي تقوم على تحليل العلاقة القائمة بين الثالث الذي يضم: المعرفة، الخطاب والسلطة، وهذا من أجل فهم نظام المعرفة وآليات إنتاجها وعلاقتها بكل من الخطاب والسلطة. ولقد قدم تحليلا ومفهوما مختلفا لهذه الأخيرة، حيث أنه لا يحصرها في المجال السياسي وفي أجهزة الدولة، بل يرى أنها أفقية منتشرة بشكل واسع في المجتمع وفي كل المؤسسات منها الأسرة، المدرسة، العيادة والسجن، ويؤكد على أنها لم تخضع من قبل لمثل هذه الدراسة والتحليل " لكن آلية السلطة لم تخضع للتحليل أبدا"⁽¹⁾. وتتجلى العلاقة القائمة بين هذه الأطراف الثلاثة في كون السلطة تراقب الخطاب وتفرض قواعد وشروط استعماله، وتحدد النظام المعرفي وتفرض مبادئ الحقيقة ومعاييرها على الذات وتملي عليها أوضاعا ووظائف ومواقف محددة " كل شيء كان يجري كما لو أن إرادة الحقيقة بدء من الإرث الأفلاطوني، لها تاريخها ... إنه تاريخ مخططات يشمل جملة المواضيع التي ينبغي أن تُعرف، تاريخ لأوضاع ووظائف الذات العارفة "⁽²⁾.

ولقد لجأ فوكو إلى الجينالوجيا من أجل تتبع كيفية تشكل الخطاب وفهم حدوده وصيغته وشروطه " إن الصياغة المنتظمة للخطاب يمكن أن تدمج معها إجراءات الرقابة وذلك ضمن بعض الشروط وبعض الحدود"⁽³⁾. ويتمثل الخطاب في نظام قوانين تظهرها السلطة، وهو مكون من أشياء منطوقة ومكتوبة وله طابع انتقالي غير ثابت، حيث تتغير الأطر المعرفية تغيرا جذريا، مما يؤدي إلى حدوث قطيعة على مستوى الخطابات عبر التاريخ. كما أنه لجأ إلى حفريات المعرفة من أجل فهم ما اختفى من مفاهيم وأفكار.

(1) ميشال فوكو: نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، 61.

(2) ميشال فوكو: جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعيد العالي، الطبعة الثانية، دار توبقال للنشر، ص 11.

(3) ميشال فوكو: جينالوجيا المعرفة، ص 35-36.

يرى فوكو أن المبادئ التي ترسم معالم الحقيقة مختلفة ومتغيرة، فلكل مجتمع طريقه وآلياته في تحديد ما هو صحيح وتمييزه عما هو خطأ " نعني بالحقيقة مجموعة من الطرائق المنظمة من أجل الإنتاج والقانون والتوزيع والتداول واشتغال المنطوقات" (4). وهي تبقى تحت مراقبة الأجهزة السياسية الاقتصادية، وهذا يدل على أن المعرفة لا تنفصل عن متطلبات السلطة، حيث يستلزم أحدهما الآخر "المهم، على ما اعتقد، هو أن الحقيقة ليست خارج السلطة وليست بدون سلطة... إن الحقيقة هي من هذا العالم، فهي ناتجة فيه بفضل عدة إكراهات... لكل مجتمع نظامه الخاص المتعلق بالحقيقة وسياسته العامة حول الحقيقة: أي أنماط الخطاب التي يقبلها هذا المجتمع ويدفعها إلى تأدية وظيفتها كخطابات صحيحة" (5).

كما يؤكد فوكو على أن المنظومات المعرفية ليست قوالب ثابتة وأشكالاً ساكنة تفرض على الخطاب من الخارج وبشكل نهائي " بل هي منظومات تكمن في الخطاب نفسه" (6). وهذا ما يجعل الفكر يتطور على شكل انقطاعات وعتبات إبستمولوجية مختلفة من حيث طبيعتها وصفتها "والتي تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف... وبذلك فهي تدفع التحليل التاريخي لا إلى تقصي البدايات الصامتة، ولا إلى الصعود اللامحدود نحو المهملين الأوائل، بل إلى رصد نمط جديد من المعقولية، ورصد نتائجه المتعددة" (7). وهو يسمي هذه الوضعيات المعرفية الجديدة بالابستمية والتي يقوم بتحليلها وتمييزها عن الأشكال الأخرى لتأريخ العلوم ويقصد بها " مجموع العلاقات التي بإمكانها أن توحد في فترة معينة بين الممارسات الخطابية ... هي مجموع العلاقات التي يمكننا الوقوف عليها في فترة ما بين العلوم حينما نحل مستوى انتظاماتها الخطابية" (8) وبتعبير آخر تدل على: " المنظومة المعرفية وهي أهم المحددات الخارجية للخطاب، فهي عبارة عن إجراء معرفي يسود في فترة تاريخية معينة ويعطي شرعية للمنطوقات ويحدد مدلولاتها ودورها الذي تؤديه. ويؤكد فوكو أن كل مرحلة تاريخية يسودها مبدأ عام ثم يختفي في ظروف غامضة ليظهر مبدأً جديداً. وهذا ما يسميه

(4) ميشال فوكو: حوار مع ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعيد العالي، مجلة Arc العدد 70،

1977 الحقيقة، دافتر فلسفية نصوص مختارة، دار توبقال للنشر، ط 2، 2005، ص 117.

(5) المصدر نفسه، ص 116.

(6) ميشال فوكو: حضريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 1987، ص 68.

(7) المصدر نفسه، ص 6.

(8) المصدر نفسه، ص 183.

بالقطيعة المعرفية، فهي تعني الانتقال من ابيستمية إلى أخرى⁽⁹⁾.

وعليه نقول إن إنتاج المعرفة يتم ضمن علاقتها بالسلطة التي تصنع خطاباً محدداً ومنتظماً ومراقباً، يتغير بتغير الحقب التاريخية.

2) غياب العلوم الإنسانية في الفكر الكلاسيكي

درس فوكو تاريخ العلوم الإنسانية وتؤكد من أن ظهورها كان متأخراً، حيث ارتبط بظهور ابيستمية جديدة وبانحلال ابيستمية العصر الكلاسيكي⁽¹⁰⁾ القائمة على مبدأ التمثيل، حيث اقتصر الاهتمام آنذاك على سلطة الخطاب أي على اللغة بوصفها أداة تمثيل، ولم يتم تقديم الإنسان كموضوع للمعرفة، إذ لم يكن يمثل نفسه في هذا التمثيل " بيد أنه لم يكن هناك وعي معرفي ابيستمولوجي للإنسان كإنسان"⁽¹¹⁾، أي أنه لم يتم تحديد مجال مفهومي خاص بالإنسان. حتى الأبحاث المتعلقة بالطبيعة البشرية لم تفعل ذلك، ففي نظر الفكر الكلاسيكي لا يندرج الإنسان ضمن الطبيعة بفضل طبيعته البشرية الخاصة، حيث أنه لا يظهر بصفته سيداً لكل معرفة، ولا بصفته الحقيقية. ولقد كانت العلوم الإنسانية مستبعدة عن الفكر الكلاسيكي، أي عن اللغة التي تربط وتفكك وتسمي " لكن النتيجة الأهم، هي أن اللغة الكلاسيكية كخطاب مشترك للتمثيل وللأشياء، كمكان تتقاطع داخله الطبيعة مع الطبيعة البشرية، يستبعد بصورة قاطعة وجود شيء ما يسمى علم الإنسان"⁽¹²⁾. في ظل هذه اللغة لم يطرح سؤال الوجود البشري، فحتى الكوجيتو الديكارتي يضم التمثيل والكينونة، يتم فيه العبور من الفكر إلى الكينونة على أساس البدهة لاحتواء الفكر على الكينونة، ولم يتم تحليل هذا الكائن المشار إليه: "أنا موجود"، وعليه فإن دراسة هذا الكائن يجب أن تكون انطلاقاً من خطاب مختلف، يطرح نمط كينونة الإنسان.

(9) أنور مغيث: أرشيف فوكو.. صندوق الدنيا، ميشال فوكو في الفكر العربي، أوراق فلسفية، 73، 2021، ص 146.

(10) لا يوظف فوكو مصطلح العصر الكلاسيكي للدلالة على حقبة تاريخية تشمل القرنين السابع والثامن عشر فقط، لكن للتأكيد على بنيتها المعرفية القائمة على نظام التمثيل والتصنيف، وعلى الشفافية بين الفكر واللغة. والذي برزت فيه الرياضيات الحديثة، الميكانيك، النحو العام، التاريخ الطبيعي، الاقتصاد السياسي.

(11) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي، سالم يفتوت وآخرين، مركز الانماء القومي، 1989-1990، ص 257.

(12) المصدر نفسه، ص 159.

في أواخر القرن 18 وحتى الثورة الفرنسية لم يكن هناك اهتمام بالإنسان كإنسان، ويرى فوكو أنه حتى النزعة الإنسانية التي نربطها عادة بعصر النهضة ليست صحيحة، فهي فكرة جديدة ابتكرت في نهاية القرن 19، أما قبل ذلك لم يكن الإنسان موجودا، حيث لا نعثر في هذه الحقبة الكلاسيكية إلا على مجموعة من أشكال المعرفة والتفكير حول الطبيعة والحقيقة والحركة والتمثيل والخيال. يتساءل فوكو متى أصبح الإنسان مركز اهتمام العلوم، ولقد اتضح لديه أن لاتناهي الطبيعة وقف حاجزا أمام مركزية الإنسان. يشير في كتابه "الجنون في العصر الكلاسيكي" إلى أنه لم يتم التفكير في الإنسان، هناك حقبة زمنية لا يظهر فيها الإنسان " رغم أن علم النحو، التاريخ، الطبيعي، وتحليل الثروات كانت كلها أشكالاً وصيغاً تعترف بالإنسان، بيد أن الوعي الابيستمولوجي بالإنسان كان غائبا تماما" (13).

يشير فوكو إلى أن لاقتصاد والبيولوجيا واللغة هي التي هيأت الشروط لظهور الإنسان كموضوع للمعرفة، بوصفه فرد عاقل وعامل، له بعد بيولوجي واقتصادي وتواصل في القرن 19. وهذا ما جعل الإنسان يفرض نفسه على الخطاب المعرفي " ظهر الإنسان الذي لا يوجد إلا عبر تناثر مخططات تنظيم الحياة وتبعثر اللغات وتباين أنماط الإنتاج" (14). وعليه يقول فوكو أن ظهور العلوم الإنسانية تزامن مع انهيار ابستمية عصر النهضة وظهور ابستمية العصر الحديث " يمكن استشراف الجذور الأركيولوجية التي حددها فوكو لظهور الإنسان كمقولة معرفية منذ القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر" (15). في العلوم السائدة من قبل لا نعثر على أي بعد إنساني على الرغم من أنها موجودة ضمنه، فالبيولوجيا والاقتصاد واللغة خالية من الإنسان باعتباره موضوعا للمعرفة. يطرح فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء" قضية ظهور مفهوم الإنسان الذي جاء متأخرا. ويبين أن الإنسان لم يكن في المركز منذ اليونان، إذ لم تطرح العلاقة بين تناهي الفهم البشري ولاتناهي الفهم الإلهي حتى القرن 20، بعد شروع الأنثروبولوجيا في تحليل التناهي الإنساني، ما سمح

(13) جواد كريمة: فلسفة العلوم الإنسانية بنظرات فوكو، أنفاس- نت 2016،

https://www.anfasse.org/2010-12-30-16-04-13/2010-12-05-17-29-12/6751- تم الاطلاع

عليه يوم 2025/08/05.

(14) جيل دولوز: المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، الطبعة الأولى المركز الثقافي

العربي 1987، ص 145.

(15) احمد عبد المجيد: فوكو وأزمة العلوم الإنسانية، نقد معرفي، مؤمنون بلا حدود، نوفمبر 2015،

https://www.youtube.com/watch?v=7iWAJ5DqiI8. تم الاطلاع عليه يوم 2025/07/30.

للإنسان بوضع شروط معرفة ذاته ابتداء من ذاته، ووضع تمثيلات تخصه هو وملء الفراغ الذي تركه علم الاحياء وعلم الاقتصاد.

(3) أركيولوجية العلوم الإنسانية والتنبؤ بموت الإنسان

1.3 ايسيمية التناهي

لا يربط فوكو مشكلة معرفة الإنسان لذاته بالبحث عن ماهية إنسانية ثابتة، لكنه يقوم بالتنقيب عن كيفية طرح السؤال ما الإنسان؟ والتساؤل عن طريقة الإجابة عنه في مختلف المراحل التاريخية للخطابات المعرفية الغريبة التي ظهرت مع العلوم الإنسانية، وبالأخص في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر التي تتزامن مع ظهور العلوم الإنسانية، باعتبار أن مسألة الإنسان كمسألة مركزية هي فكرة حديثة ارتبط ظهورها بظهور نمط محدد من المعرفة⁽¹⁶⁾.

يرى فوكو أن البحث في الإنسان لم يظهر إلا بعد اختفاء الفكر الكلاسيكي، جراء التغير الأركيولوجي الذي يضع الإنسان كموضوع للمعرفة وكذات تعرف، ويبرزه ناظرا ومنظورا. أي حين بدأ يبرز بكيانه الخاص وبقدرته على إعطاء تمثيلات لذاته. وهو لا يكتشف نفسه حين يفكر، ذلك لأنه يكون في صورة كائن في الأعماق الموجودة وراء تفكيره والسابقة له، فهي خارجية بالنسبة له، سابقة عن ولادته وتتعالى عليه، وتعبه وكأنه لا شيء ومجرد جماد طبيعي. وهنا يظهر تناهي الإنسان في مجال المعرفة، والعلم لا يخبرنا بمستقبل هذه الحدود المتعلقة بالتناهي، ولا بأي أمل عن إمكانية فتحها. وهو تناهي يركز على وجوده وليس مفروضا من الخارج، حيث ينكشف في قلب التجريبية. إن فكرة التناهي تنذر بنهاية الميتافيزيقا، والتي تعد إنذارا بظهور الإنسان، والإعلان عن بداية الحداثة المرتبطة بشروع الإنسان في الوجود داخل عضويته، وفي كل أعضائه وفيزيولوجيته، وعندما بدأ يتواجد في العمل، وعندما بدأ فكره يسكن لغته. وحتى على المستوى الأركيولوجي يبقى الإنسان الحديث هو الإنسان الذي يُحصر ضمن وجوده الجسدي الناشط والناطق، أي بصفته صورة للتناهي" تستطيع الثقافة الحديثة أن تفكر الإنسان، لأنها تفكر المتناهي انطلاقا من

(16) Judith Revel : **La mort de l'homme selon Michel Foucault**

<https://www.radiofrance.fr/franceculture/podcasts/avec-philosophie/la-mort-de-l-homme-selon-michel-foucault-1153208> /29/05/2024 consulté le 30/07/2025.

ذاته" (17).

تنظر الأنثروبولوجيا إلى الإنسان على أنه كائن متناهي محدود ومزدوج: تجريبي ومتعالٍ وهذا ما يجعل الإنسان كائنًا غريبًا وسط هذه الازدواجية : ذلك لأنه نتعرف فيه عن امكان وشروط المعرفة انطلاقًا من المضامين التجريبية التي يقدمها هذا التناهي⁽¹⁸⁾. تتلخص هذه الازدواجية في وجود نوعين من التحاليل: تلك التي تبحث في الجسد والشعور والأحاسيس والشبكات العصبية، بطريقة تجريبية، التي تبين أن المعرفة لها شروط تشريحية فيزيولوجية تتكون تدريجيًا ولها مركز خاص، بمعنى أن المعرفة لها مضامين تجريبية. وتلك التحاليل التي تدرس الأوهام القديمة وكيفية التحرر منها، ما يطلق عليها الجدلية المتعالية التي تبين أن المعرفة لها شروط تاريخية واجتماعية واقتصادية، وتاريخ يمكن أن يكون موضوعًا للمعرفة التجريبية ويمكن أن يفرض أشكاله عليها.

لكن دراسة تاريخ المعرفة وطبيعتها يستلزم نوعًا من النقد، على أساس تمييزات تميز بين المعرفة البدائية عن المعرفة القائمة في أشكال ثابتة ونهائية. والتمييز بين الخيال والحقيقة، وبين الوهم الأيديولوجي والنظرية العلمية، وتمييز الحقيقة ذاتها العائدة إلى نظام الموضوع وتلك العائدة إلى نظام الخطاب، أي حقيقة تتكلم بلغة صادقة عن الطبيعة والتاريخ. لكن هذا الخطاب يبقى ملتبسًا حيث أنه إما أن يجد تبريرًا في الحقيقة التجريبية، فنكون أمام حقيقة وضعية تفرضها حقيقة الموضوع أي أن حقيقة الخطاب تفرضها حقيقة الموضوع. وإما أن يسبق الخطاب هذه الحقيقة ويرسمها من بعيد، ونكون هنا أمام خطاب طوباوي أخروي وغيبى. وعلى المستوى الأركيولوجي لا يمكن الفصل بين الخطاب الوضعي والخطاب الأخروي (المستقبلي). بمعنى أن الخطاب يكون نقديًا وتجريبيًا معًا ووضعيًا وأخرويًا معًا، وبذلك تسيطر عليه سداجة قبل نقدية.

يرى فوكو أن الإنسان لا يمكن أن يدرك ذاته من خلال الشفافية المباشرة والمطلقة للكوجيتو، فهو لا يمكن أن يكون في الموضوعية الجامدة التي يتصف بها الكوجيتو، فهو نمط من الكينونة غير قابل للتحديد بشكل نهائي، فهو يبقى بلا تعيين، ولا يمكن إدراك هذا

(17) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 264.

(18) Judith Revel : La mort de l'homme selon Michel Foucault

<https://www.radiofrance.fr/franceculture/podcasts/avec-philosophie/la-mort-de-l-homme-selon-michel-foucault-1153208> /29/05/2024 consulté le 30/07/2025.

الجزء فيه والذي يمضي بلا تحديد بواسطة الكوجيتو، فهو يتمثل في هذه الكثافة التجريبية وفي خبرات لا تعي ذاتها وفي أفق صامت لا مفكر. وهذا ما يجعل الإنسان محلاً للجهد، لأن كينونته تتجاوز فكره. وعليه لن يجد التفكير المتعالي علة وجوده، إذ هناك مسافة تفصل وتربط بين الفكر الحاضر لذاته، وبين ما يتجذر من الفكر في اللامفكر. إن الأنا أفكر هو شبه حاضر لا يقود إلى بدهة الأنا موجود، فهو يقظة ناعسة وملتبسة، ففي الكينونة ترسبات لا يستحضرها الفكر. وبهذا فإن الكوجيتو يفتح تساؤلات حول الكينونة ولكن لا يؤكد، وهذه التساؤلات تعبر عن فكر بعيد عن ديكارت وكانط، موضوعه هو كينونة الإنسان، فكر يتوجه إلى اللامفكر فيه⁽¹⁹⁾.

وبناء على ذلك يجد الإنسان نفسه في وضع اشكالي، فهو من جهة يمثل موضوع للدراسة التجريبية من طرف علم النفس والبيولوجيا وعلوم اللغة وعلم الاقتصاد، وفي الوقت ذاته يعتبر شرطاً لإمكان المعرفة، بحيث أن الذات هي التي تضع الشروط المسبقة للمعرفة. فإذا كان متناهيًا فكيف يكون المرجع الأخير للمعرفة؟ وكيف يؤسس معرفة عن ذاته وعن العالم؟ وهذا ما يعبر عنه فوكو بالتوتر الانثروبولوجي، ذلك لأن العلوم الإنسانية لا تستطيع تجاوز التناهي، الذي يدل على تصور الإنسان على أنه كائن محدود بالزمان والتاريخ والجسد واللغة والعمل⁽²⁰⁾.

2.3 الخطاب وكينونة الإنسان

لا يندرج نمط تحليل الكينونة في الفكر الحديث ضمن نظرية حول التمثيل، التي ميزت العصر الكلاسيكي، بل إن مهمته هي بيان كيف يمكن للأشياء أن تقع تحت التمثيل، أي الشروط والأرضية والحدود التي هي أعمق من أنماط الإدراك المختلفة. وهنا يظهر التناهي الجذري والتبعثر الذي يقصيه عن الأصل ويعدّه به في نفس الوقت. إن تحليلية الإنسان لا تستعيد تحليل الخطاب كما كان في التقاليد، والذي انشطر بسبب زوال أولية التمثيل، فقد أعيد تمثيل العلاقة بين الأشياء والكلمات. وتحليلية نمط وجود الإنسان لم يكن ممكناً دون

(19) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 267.

(20) Arthur Longneux : **Michel Foucault et la mort de l'homme : essai d'analyse archéologique de l'archéologie** <https://www.implications-philosophiques.org/michel-foucault-et-la-mort-de-lhomme-essai-danalyse-archeologique-de-larcheologie-12/03/11/2014> consulté le 10/08/2025

تفكيك تحليل الخطاب التمثيلي وقلبه. ويشير فوكو إلى أن كينونة اللغة وكينونة الإنسان لم تتعايشا، وأن تنافرها يعد من أهم خصائص الفكر الحديث.

أصبحت الأنثروبولوجيا كتحليلية للإنسان ضرورية في الفكر الحديث، ويعتبر السؤال ما الإنسان؟ مركزيا في القرن التاسع عشر، بسبب الخلط بين التجريبي والمتعالي، وهو سؤال يؤذن بعودة مملكة الإنسان بعد انتظار طويل. والمقصود منه هو إظهار إنسان الطبيعة والتبادل والخطاب كأساس لتناهيته الخاص به. تظهر الترنسندتالية وكأنها تسيطر على التجريبية وتدب الحركة فيها، ما يجعل كل معرفة ترتبط بالإنسان مجالا صالحا للفلسفة حيث ينبغي أن يظهر أساس المعرفة وحدودها⁽²¹⁾.

إن نمط وجود الإنسان في العصر الحديث، يحدد وضعية العلوم الإنسانية، التي تمثل مجموعة المعارف التي موضوعها الإنسان. وهي لم تكن حقلا واضح المعالم، ما يستدعي تطويرها بمناهج وضعية ومفاهيم علمية. وهي ظهرت بعدما فرض الإنسان نفسه في الثقافة الغربية باعتباره موضوعا للتفكير والمعرفة. وكان ظهور هذا الحقل المعرفي مرتبطا بمشكلة وحاجة فرضها المجتمع الصناعي، مما أدى إلى نشأة السيكلولوجيا. إضافة إلى مختلف الضغوطات على الحياة الاجتماعية التي أدت إلى ظهور السوسيولوجيا. لكن فوكو يرى أن تحول الإنسان إلى موضوع للمعرفة يمثل حدثا في نسق المعرفة، وفي الابستمية بعد انفصالها عن التمثيل.

إن العلوم الإنسانية مرتبطة بكل أشكال المعرفة، وتسعى لأن يكون لها تشكيلا رياضيا، وأن تعمل وفق نماذج مستوحاة من البيولوجيا والاقتصاد وعلوم اللغة. تهدف من خلالها إلى دراسة كينونة الإنسان بطريقة تجريبية. ومن هذا المنطلق يرى فوكو أنه يصعب تحديد موقع هذه العلوم بسبب هذا الانتشار في هذا الثلاثي. وهي مهددة بخطر يتعلق بوضع الإنسان الذي يحكم عليها ويجعلها غير مستقرة ومعقدة في تشكيلها الابستمولوجي، ما يفسر عدم دقتها واستنادها إلى المجالات المعرفية الأخرى وقربها من الفلسفة.

يشرح فوكو وضعية العلوم الإنسانية، ويقول أن البعض يسعى إلى ترييضها، أي تقريبها إلى الرياضيات، ونجد من يؤكد على أن هذا المجال خاضع للتأويل والفهم وليس للترييض. إلا أنه يعتبر هذه المسألة غير أساسية، لأنها مشتركة بين كل العلوم وبكيفية مختلفة، فهي لم

(21) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، 279-280.

تحقق كلها تريبضا فعليا. وهذا ما يعني أن البعد الرياضي هو أقل إشكالا من الأبعاد الأخرى. باعتبار أن الرياضيات تفتح مجالها للعلوم الإنسانية لتقييم معها علاقات، وهي التي تضفي عليها الشكل العلمي. ولكن الصعوبة الكبرى في تحديد ماهية العلوم الإنسانية تتعلق بالبعدين الآخرين، أي البعد المتعلق بتناهي الإنسان، والبعد الخاص بالعلوم التجريبية التي تدرس الحياة واللغة والعمل⁽²²⁾.

تتوجه العلوم الإنسانية إلى الإنسان بوصفه كائنا حيا ينطق وينتج وإلى كل ما يترتب عن هذه الوظائف من نمو، وحاجات، ووجود جسدي، وتبادل وعلاقات مع غيره. ولذلك فإن هذه العلوم الإنسانية تقيم بجوار العلوم التي تدرس هذه الوظائف، دون أن تكون أساسها الأصلي. لأن هذه العلوم لا تركز على دراسة ميكانيكية الوظائف البيولوجية، وإنما هي تبدأ حيث تنتهي هذه الوظائف أي من كينونتها. كما أنها لا تدرس اللغة في علاقتها بالدماغ، بل في علاقتها بحضور الكلمات ونسيان معانيها والتفاوت بين اللغة والفكر. كما أنها لا تنظر إلى الإنسان في كيانه الجسدي، بل من حيث هو كائن في الحياة ككل بكل جوارحه. ومنه فإن هذه العلوم لا تدرس طبيعة الإنسان بل وضعيته، وما يخول له أن يعرف. وهي تربط العلوم الأخرى بإمكانية وجودها في كينونة الإنسان⁽²³⁾.

3.3 قصور العلوم الإنسانية وموت الإنسان

أ) في التاريخ

يرى فوكو أن التاريخ يقيم علاقة غريبة وغير محددة مع العلوم الإنسانية، ومع ذلك تظل أساسية. ولقد ظهر قبل هذه العلوم كما أنه لعب دورا كبيرا في الثقافة الغربية، فهو ذاكرة وأسطورة، ناقلا للكلمة والتقاليد، نقدا للحاضر، واستشرافا بالمستقبل. ولكن تفسخت وحدته في القرن التاسع عشر، بعدما كان يحوي كل الجوانب: البشر، الحيوانات، الأرض، بفعل التحول الذي طرأ على ابيستمية هذا القرن، بعد اكتشاف تاريخية الطبيعة، وتاريخية النشاطات الإنسانية وتاريخية اللغة. ولقد أعطى هذا القرن للتاريخ أهمية كبيرة لأسباب سياسية واجتماعية. وبعد التخلي عن فكرة التواصل في الزمن، والتقدم المطرد. وبذلك فإن التاريخية المتعلقة بالإنسان تشمل كل ما صنعه واللغة التي ينطق بها، والحياة،

(22) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ص 288.

(23) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 290.

وليس الاقتصاد والآداب إلا انعكاس لانتشار هذه التاريخية التي اكتشفت على قطاعات معرفية ابتعدت عنه تدريجياً، وهذا بعد أن حصلت كل هذه الأشياء على تاريخية خاصة بها. أما الإنسان فهو في هذا العصر كان منزوع التاريخ، فقد وجد ذاته مفرغاً من التاريخ. لكن بعد أن تعمق في أعماق ذاته واكتشف الأشياء التي تعكس صورته، آنذاك كانت له تاريخيته، أي تاريخ كينونة الإنسان ذاتها. فهو ليس محاطاً بالتاريخ وحسب بل هو يرسم تاريخ البشرية وتاريخ الاقتصاد وتاريخ اللغة " وهكذا يكون على مستوى عميق جداً، تاريخية للإنسان تكون تاريخ ذاتها، وفي الوقت عينه، تكون هي التبعثر الجذري الذي يبرر كل التاريخيات الكبرى" (24). وبناء على ذلك نجد سعي كبير لكتابة تاريخ عن كل شيء والبحث عن قوانين الصيرورة العامة. يبرز الإنسان في القرن التاسع عشر ككائن يحيا ويعمل وينطق ويفكر، لذلك تكون هناك تفسيرات للتاريخ: تنطلق إما من كون الإنسان جنس حي، أو من القوانين الاقتصادية، أو من المجموعات الثقافية. وبناء على ذلك تتحدد علاقة التاريخ بالعلوم الإنسانية حيث يتضمن كل ما يتعلق بالسيكولوجيا والسوسيولوجيا وفقه اللغة، وتكون مضامينها خاضعة لحركة التاريخ. فهو يعطي لها خلفية لكنه يفرض حولها حدوداً في نزوعها نحو الشمولية.

هناك تأرجح بين وضعية الإنسان كموضوع لدراسة تجريبية في العمل والحياة واللغة وبين حدود كينونته، أي بين الأشكال الخاصة بهذه الحقول المعرفية وبين الوضعية التاريخية للذات، حيث أن الذات ترتبط بالموضوع في تساؤل متبادل، وبالأخص بعد اكتشاف اللاوعي من طرف الوعي. وهنا يكون التساؤل حول حدود الذات والموضوع. ويدل ذلك على أنه يبقى دائماً شيء على العلوم الإنسانية التفكير به، اعتماداً على تم التفكير به ظاهرياً. وهذا يعتبر وجه من وجوه التناهي، أي التناهي الذي لا ينتهي، الذي يدل على أن الإنسان هو دائماً في حالة تأخر بالنسبة لذاته، وأنه بقيت أشياء ليفكر فيها " فإن تناهيا بدون لاتناه، إنما يعني بلا شك أنه تناه ما كان لينتهي أبداً، وهو دائماً في حال تأخر بالنسبة لذاته، متبقياً له أيضاً بعض ما يفكر فيه، في اللحظة التي يفكر فيها، ومتبقياً له دائماً من الوقت ليفكر من جديد فيما كان فكر فيه" (25).

يتحدث فوكو عن التاريخ الرسمي الذي توظفه السلطة خدمة لمصالحها والذي تخضعه لمبادئ تحدد كيفية كتابته وفهمه، بوصفه يمثل تاريخها ومجال إنجازاتها فهو يعبر

(24) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ص 301.

(25) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ص 303.

عن خطابها حول ذاتها، و هو تاريخ مزيف . بينما يظل التاريخ الحقيقي مخفيا ومسكوتا عنه وهو فضاء رحب يشمل أحداثا مبعثرة ومختلفة تشمل المنطوق والمكتوب، يستدعي البحث عنه بواسطة الحفر الأركيولوجي "و الحقيقة أن فوكو لا ينكر التاريخ، وإنما ينكر تاريخا معيناً أو تصورا معيناً للتاريخ، ذلك التصور القائم على الاتصال وسيادة الوعي والذات" (26).

(ب) في التحليل النفسي والاثنولوجيا

يعود فوكو إلى دور كل من التحليل النفسي والاثنولوجيا، ويرى أنه لهما مكانة مرموقة في المعرفة، لكنهما كانا مصدر قلق وتساؤل ونقد ومعارضة لما تحقق في العلوم الأخرى، لذلك كان لهما موقعا مهما في الأبيستمية. يبين فوكو تلك الوظيفة النقدية للتحليل النفسي، من خلال خطاب اللاوعي الذي يتكلم من خلال الوعي، حيث تقوم علاقات التمثيل بالتناهي. فهو يأخذ الاتجاه المعاكس للعلوم الإنسانية، كونه يتجه نحو إدراك ما كان ممتنعا، وبذلك فهو يتخطى التمثيل، ويكشف عن صراعات. لكن تبقى نظرية التحليل النفسي ليست نظرية عامة وشاملة للإنسان.

تتركز الاثنولوجيا في بعد التاريخانية التي تنقد العلوم الإنسانية من منطلق تاريخها الخاص، وهي حتى وإن كانت تبدو وكأنها تدرس الشعوب التي لا تاريخ لها، فإنها في الحقيقة تدرس الثقافات وثوابتها البنيوية، ولا تهتم بتعاقب الأحداث، وتحاول إبراز العلاقات التزامنية بين الثقافات المختلفة، والتداخل بين تاريخية الثقافة الغربية وتاريخية الثقافات الأخرى، وصلتها بكل تاريخ. وتبحث عن موقع العقل الغربي الذي تركز عليه علاقته مع سائر المجتمعات ومع المجتمع الذي ظهر فيه هذا الموقع. وهي تأخذ أبعادها داخل السيادة التاريخية المكبوتة والحاضرة لهذا الفكر وعلاقته التصادمية مع غيره ومع ذاته. وهي تبين كيف تتطبع الوظائف البيولوجية في ثقافة ما، وكيف تتحدد أشكال وقواعد المقايضة والإنتاج والاستهلاك، وكذلك المنظومات الخاصة بالبنى اللغوية، وهي تسير نحو القطاع الذي تتمفصل فيه علوم الإنسان على هذه البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة. كما أنها تطرح إشكالية العلاقات الاتصالية والانفصالية بين الطبيعة والثقافة، وتحدد أي نوع من المصير التاريخي متوفر للثقافة، أي تسعى إلى دراسة نمط تاريخانية كل ثقافة، وما هي الأسباب التي تحدد شكل حركة التاريخ. وهي تتساءل ما الذي جعل معرفة ما ممكنة حول الإنسان. وتبحث

(26) الزاوي بغورة: الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 325.

مثلها مثل التحليل النفسي في الجانب الغامض في الطبيعة البشرية، أي الحقيقة القبلية التاريخية الملازمة لكل العلوم الإنسانية، أي الابستمية، وبذلك لا يمكن للعلوم الإنسانية التحرر منهما. لكنهما لا يبلغان المفهوم العام للإنسان ولا يحيطان بخصوصيته وفرادته. يرى فوكو أنهما يتقاطعان عموديا، لأن خبرة الفرد تتقاطع عموديا مع شكل الثقافة ودلالاتها.

الخاتمة

يتضح من هذه الدراسة أن التحليل الأركيولوجي الذي قام به فوكو لواقع العلوم الإنسانية، يعطي لمشروعه قيمة نقدية من خلال تعريته لأوهام الموضوعية والكونية التي تحلم بها هذه العلوم. لقد بقيت عاجزة عن تقديم مفهوم ثابت عن الإنسان يعكس طبيعته وحقيقته، حيث ظل رهين خطاب السلطة، ما يجعله هشاً ومؤقتاً حتى حين بدأ التفكير في اعتبار الإنسان فكرة مركزية وكلية في نهاية القرن الثامن عشر. وبناء على ذلك نقول إن جوهر المفارقة التي تنطوي عليها هذه العلوم يكمن في كونها قد أضاعت مفهوم الإنسان الذي يشكل موضوع دراستها. وهذا ما يبنى بنهاية الإنسان الذي هو مجرد اختراع حديث يشبه وجه يمحى على شاطئ البحر على حد تعبير فوكو.

تشكل هذه الدراسة النقدية التي قام بها فوكو وإعلانه عن موت الإنسان، أفقا للتفكير في المآزق الذي وقعت فيه العلوم الإنسانية والتي يعتبرها خطابا تاريخيا مشروطا. ما يسمح باقتراح بدائل لتجاوز هذه الأزمة التي صنعتها ضغوطات السلطة على المنظومات المعرفية ومراقبتها لها. فبعد كشف الغطاء عن المسائل التي بقيت في دائرة اللامفكر فيه أو المسكوت عنه، عن طريق الحفر الأركيولوجي، والكشف عن الشروط التاريخية التي تحدد ابستمية العصر الحديث التي أدت إلى ظهور العلوم الإنسانية، يمكن إعادة بناء هذه العلوم على أسس جديدة تتجاوز الحدود المفروضة عليها، وإعادة النظر في موقع الإنسان داخل نسق المعرفة ككل، ومن ثم ابتكار أشكال جديدة من التفكير تسمح بفهمه وتوسيع مجال البحث في كل ما يخصه.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- (1) ميشال فوكو: جينياولوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، الطبعة الثانية، دار توبقال للنشر، 2008.

(2) ميشال فوكو: **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 1987.

(3) ميشال فوكو: **حوار مع ميشال فوكو**، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، مجلة Arc العدد 70، 1977 نقلا عن (الحقيقة، دفاتر فلسفية نصوص مختارة، دار توبقال للنشر، ط 2، 2005).

(4) ميشال فوكو: **الكلمات والأشياء**، ترجمة مطاع صفدي، سالم يفوت وآخرين، مركز الانماء القومي، 1990-1989.

II) المراجع

(1) أنور مغيث: **أرشيف فوكو**، صندوق الدنيا، ميشال فوكو في الفكر العربي، أوراق فلسفية، 73، 2021، ص 146.

(2) جيل دولوز: **المعرفة والسلطة**، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، 1987.

(3) الزاوي بغورة: **الخطاب في فلسفة ميشال فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

III) مواقع الكترونية

(1- أحمد عبد المجيد: **فوكو وأزمة العلوم الإنسانية**، نقد معرفي، مؤمنون بلا حدود، نوفمبر 2015، <https://www.youtube.com/watch?v=7iWAJ5DqiI8>، تم الاطلاع عليه يوم 2025/07/30.

(2- جواد اكريعة: **فلسفة العلوم الإنسانية بنظرات فوكو**، أنفاس- نت 2016، <https://www.anfasse.org/2010-12-30-16-04-13/2010-12-05-17-29-12/6751-> تم الاطلاع عليه يوم 2025/08/05.

3) Arthur Longneaux : **Michel Foucault et la mort de l'homme : essai d'analyse archéologique de l'archéologie**

<https://www.implications-philosophiques.org/michel-foucault-et-la-mort-de-lhomme-essai-danalyse-archeologique-de-larcheologie-12/03/11/2014> consulté le 10/08/2025.

4) Judith Revel: **La mort de l'homme selon Michel Foucault**

<https://www.radiofrance.fr/franceculture/podcasts/avec-philosophie/la-mort-de-l-homme-selon-michel-foucault-1153208> /29/05/2024 consulté le 30/07/2025.